

تفسير ابن كثير

يخبر تعالى أن خبر يوسف وامرأة العزيز شاع في المدينة وهي مصر حتى تحدث به الناس { وقال نسوة في المدينة { مثل نساء الكبراء والأمراء ينكرن على امرأة العزيز وهو الوزير ويعبن ذلك عليها { امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه { أي تحاول غلامها عن نفسه وتدعوه إلى نفسها { قد شغفها حبا { أي قد وصل حبه إلى شغاف قلبها وهو غلافه قال الضحاك عن ابن عباس : الشغف الحب القاتل والشغف دون ذلك والشغاف حجاب القلب { إنا لنراها في ضلال مبين { أي في صنيعها هذا من حبها فتاها ومراودتها إياه عن نفسه { فلما سمعت بمكرهن { قال بعضهم : بقولهن ذهب الحب بها وقال محمد بن إسحاق : بل بلغهن حسن يوسف فأحببن أن يرينه فقلن ذلك ليتوصلن إلى رؤيته ومشاهدته فعند ذلك { أرسلت إليهن { أي دعتهن إلى منزلها لتضيفهن { وأعدت لهن متكئا { قال ابن عباس وسعيد بن جبير ومجاهد والحسن والسدي وغيرهم : هو المجلس المعد فيه مفارش ومخاد وطعام فيه ما يقطع بالسكاكين من أترج ونحوه ولهذا قال تعالى : { وآت كل واحدة منهن سكيना { وكان هذا مكيدة منها ومقابلة لهن في احتيالهن على رؤيته { وقالت اخرج عليهن { وذلك أنها كانت قد خبأته في مكان آخر { فلما خرج { رأيته أكبرنه { أي أعظمه أي أعظم شأنه وأجلل قدره وجعلن يقطعن أيديهن دهشا برؤيته وهن يظنن أنهن يقطعن الأترج بالسكاكين والمراد أنهن حزنن أيديهن بها قاله غير واحد وعن مجاهد وقتادة : قطعن أيديهن حتى ألقينها فاق أعلم .

وقد ذكر غير واحد أنها قالت لهن بعد ما أكلن وطابت أنفسهن ثم وضعت بين أيديهن أترجا وآت كل واحدة منهن سكيना : هل لكن في النظر إلى يوسف ؟ قلن : نعم فبعثت إليه تأمره أن اخرج إليهن فلما رأيته جعلن يقطعن أيديهن ثم أمرته أن يرجع ليرينه مقبلا ومديرا فرجع وهن يحزنن في أيديهن فلما أحسن بالألم جعلن يولولن فقالت : أنتن من نظرة واحدة فعلتن هذا فكيف ألام أنا ؟ { وقلن حاشا ما هذا بشرا إن هذا إلا ملك كريم { ثم قلن لها : وما نرى عليك من لوم بعد هذا الذي رأينا لأنهن لم يرين في البشر شبيهه ولا قريبا منه فإنه عليه السلام كان قد أعطي شطر الحسن كما ثبت ذلك في الحديث الصحيح في حديث الإسراء أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مر بيوسف عليه السلام في السماء الثالثة قال [فإذا هو قد أعطي شطر الحسن] وقال حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : [أعطي يوسف وأمه شطر الحسن] وقال سفيان الثوري عن أبي إسحاق عن أبي الأحوص عن عبد الله بن مسعود قال : أعطي يوسف وأمه ثلث الحسن وقال أبو إسحاق أيضا عن أبي الأحوص عن عبد الله قال : كان وجه يوسف مثل البرق وكانت المرأة إذا أتته لحاجة غطى وجهه مخافة أن

تفتتن به ورواه الحسن البصري مرسلًا عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : [أعطى يوسف وأمه ثلث حسن أهل الدنيا وأعطى الناس الثلثين] أو قال [أعطى يوسف وأمه الثلثين والناس الثلث] وقال سفيان عن منصور عن مجاهد عن ربيعة الجرشي قال : قسم الحسن نصفين فأعطى يوسف وأمه سارة نصف الحسن والنصف الآخر بين سائر الخلق .

وقال الإمام أبو القاسم السهيلي : معناه أن يوسف عليه السلام كان على النصف من حسن آدم عليه السلام فإن الله خلق آدم بيده على أكمل صورة وأحسنها ولم يكن في ذريته من يوازيه في جماله وكان يوسف قد أعطى شطر حسنه فلماذا قال هؤلاء النسوة عند رؤيته { حاش الله } قال مجاهد وغير واحد : معاذ الله { ما هذا بشرا } وقرأ بعضهم ما هذا بشري أي بمشترى بשרاء { إن هذا إلا ملك كريم * قالت فذلك الذي لمتني فيه } تقول هذا معذرة إليهن بأن هذا حقيق أن يحب لجماله وكماله { ولقد راودته عن نفسه فاستعصم } أي فامتنع قال بعضهم : لما رأى جماله الظاهر أخبرتهن بصفاته الحسنة التي تخفى عنهن وهي العفة مع هذا الجمال ثم قالت تتوعده { ولئن لم يفعل ما أمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين } فعند ذلك استعاذ يوسف عليه السلام من شرهن وكيدهن و { قال رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه } أي من الفاحشة { وإلا تصرف عني كيدهن أصب إليهن } أي إن وكلتني إلى نفسي فليس لي منها قدرة ولا أملك لها ضرا ولا نفعا إلا بحولك وقوتك أنت المستعان وعليك التكلان فلا تكلني إلى نفسي { أصب إليهن وأكن من الجاهلين * فاستجاب له ربه } الآية وذلك أن يوسف عليه السلام عصمه الله عصى عظيمة وحماه فامتنع منها أشد الامتناع واختار السجن على ذلك وهذا في غاية مقامات الكمال أنه مع شبابه وجماله وكماله تدعوه سيدته وهي امرأة عزيز مصر وهي مع هذا في غاية الجمال والمال والرياسة ويمتنع من ذلك ويختار السجن على ذلك خوفا من الله ورجاء ثوابه .

ولهذا ثبت في الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : [سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله : إمام عادل وشاب نشأ في عبادة الله ورجل قلبه معلق بالمسجد إذا خرج منه حتى يعود إليه ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما أنفقت يمينه ورجل دعت امرأة ذات منصب وجمال فقال : إني أخاف الله ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه]